

إستراتيجية استغلال المياه ودورها في الانتصار العسكري الإسلامي في معركة حطين عام (583هـ / 1187م)

The strategy of water exploitation and its role in the Islamic military victory in the Battle of Hattin in (583 Ah / 1187 Ad)

عبد الله بكوش¹*

¹ مخبر تاريخ الجزائر بكلية العلوم الإسلامية والإنسانية- جامعة وهران 1، الجزائر abdebekk@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022/10/02، تاريخ القبول: 2024/10/28، تاريخ النشر: 2024/10/30

ملخص:

يعتبر الماء أساس الحياة ومقوم قيام أي حضارة إنسانية أو أحد أسباب زوالها، ويمكن استعماله كسلاح لقلب موازين القوى وتحقيق الانتصارات العسكرية التي تغير مجرى التاريخ الإنساني، وقد سجل التاريخ عدة مواقف استخدم فيها الماء كسلاح ضغط يراد به إخضاع المدن والشعوب سواء بالسلم أو بالحرب، وما معركة حطين عام 1187 م إلا مثال حي على ذلك، حيث استغل القائد صلاح الدين الأيوبي أبار ومياه بحيرة طبرية لهزيمة الصليبيين بحطين وتحرير مدينة القدس عام (583 هـ / 1187 م).

الكلمات المفتاحية: صلاح الدين؛ معركة حطين؛ مياه؛ جيش؛ صليبيين.

Abstract:

Water is considered the essence of life and the pillar that helps raise or demise any human civilization, as it can be used as a weapon to turn the scale of power and achieve military victories that can alter the course of human history, which has witnessed a lot of situations where water was used as a leveraging weapon to force the submission of cities and nations whether with peace or war. The battle of Hattin in 1187 Ad is a vivid example of this, as the leader Salah addin Ayyubi used the wells and waters of lake Tiberias to defeat the crusaders at Hattin and liberate the city of Jerusalem in (583 Ah/ 1187 Ad).

Keywords: Salah addin; Battle of Hattin; waters; army; Crusaders.

*عبد الله بكوش

مقدمة :

خلال العصور الوسطى وبالأخص فترة الحروب الصليبية التي أثارتها أوروبا المسيحية ضد بلاد المسلمين - سواء بالمغرب أو بالشرق- وجندت لها كل طاقاتها المادية والبشرية، ودارت أكثر وقائعها ببلاد الشام خلال الفترة الزمنية الممتدة من سنة 1099م إلى غاية سنة 1291م، ونظرا لكون الماء يمثل سلاحا إستراتيجيا؛ فقد تنبه قادة الحملات الصليبية لذلك؛ فسعوا بكل طاقاتهم للسيطرة على منابع المياه من أبار وبحيرات وأنهار وأودية، لدعم استيطانهم بالمنطقة واستقدام متطوعين جدد من أوروبا دعما لاستمرارية الوجود الصليبي ببلاد الشام هذا من جهة، ومن جهة أخرى حرمان أعدائهم المسلمين قدر الإمكان من مزايا المواقع الإستراتيجية التي تتميز بها تلك المنابع.

كان الصراع الإسلامي الصليبي في احد جوانبه صراعا على مصادر المياه، وبحكم أن المناطق الساحلية لبلاد الشام كانت غنية بتلك المصادر؛ فقد استطاع قادة الحملة الصليبية الأولى تأسيس أربع إمارات وهي: إمارة الرها 1097م، إمارة أنطاكية 1098م، إمارة بيت المقدس 1099م وإمارة طرابلس 1109م، وقد اتصف سلوك الصليبيين بالهمجية والوحشية منقطعة النظير، مما كان له رد فعل لدى المسلمين تجسد في المقاومة التي تزعمتها الأسرة الزنكية، وتوجت بتحرير مدينة الرها عام 1144م، ليكمل المسيرة صلاح الدين الأيوبي ويحرر مدينة القدس عام 1187م؛ نهدف من خلال هذه الدراسة، إلى إبراز أهمية ودور الماء كسلاح يمكن أن يقلب موازين القوى ويحقق الانتصارات العسكرية، وما معركة حطين عام 1187م إلا مثال حي على ذلك.

وعليه نطرح الإشكال الآتي: إلى أي مدى ساهم استغلال الماء كسلاح في تحقيق الانتصار العسكري الإسلامي في معركة حطين عام 1187م؟ ما هي إرهابات معركة حطين؟ وكيف استغل القائد صلاح الدين الأيوبي أبار ومياه بحيرة طبرية لهزيمة الصليبيين بحطين عام 1187م؟

وللإجابة عن الإشكالية اعتمدنا على المحاور التالية:

- 1- إرهابات معركة حطين عام (583 هـ / 1187م)
- صلاح الدين وقيام الدولة الأيوبية (569-582 هـ / 1174-1186م)
- المناوشات العسكرية بين الإمارات الصليبية والدولة الأيوبية (569-583 هـ / 1174-1187م)
- 2- مجريات معركة حطين عام (583 هـ / 1187م)
- الاستعدادات العسكرية للمسلمين والصليبيين
- سلاح التعطيش وهزيمة الجيش الصليبي بحطين

المنهج المعتمد في الدراسة، هو المنهج التاريخي الذي يقوم على تتبع الظواهر التاريخية والتعرف على جزئياتها. وتحليلها.

1- إرهابات معركة حطين عام (583هـ/1187م) :

- صلاح الدين وقيام الدولة الأيوبية (569-582هـ/1174-1186م):

تأسيس الدولة الأيوبية جاء تنويجا لمرحلة من اشد مراحل التاريخ الإسلامي حرجا، إذ كانت الحروب الصليبية على أشدها، والوحدة الإسلامية بين بلاد الشام ومصر، قد قطعت مرحلة متقدمة بفضل الجهود التي بذلها كل من عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود، ليحى دور صلاح الدين الأيوبي ويتم هذه الوحدة، ويدفع المسلمين لقتال الصليبيين لتحرير المناطق الخاضعة لهم.

تحدث المؤرخون المتقدمون عن النسب الأيوبي واختلفوا حول أصول هذا النسب، فقد كتب كل من ابن الأثير، ابن خلكان وابن واصل... عن نسب الأيوبيين، ولكنهم لم يجمعوا على رأي واحد، ولم يبتوا نهائيا في النسب الأيوبي، فمنهم من قال بأنهم كرد، ومنهم من قال أنهم عرب، ولكنهم اتفقوا جميعا على أن جد الأيوبيين، هو الأفضل نجم الدين أيوب بن شادي (شادي) بن مروان (محمد سهيل طقوش، 2008، ص 16-17).

ولد صلاح الدين في قلعة تكريت بالعراق عام (532هـ/1137م)، ويرجع نسبه إلى أيوب بن شادي بن مروان من أهل مدينة دوين بدولة أرمينيا الحالية (أحمد الشامي، 1991، ص 76)، وقد اختلف المؤرخون في نسب العائلة الأيوبية، لذا سنركز على ثلاث روايات على سبيل المثال لا الحصر، يذكر ابن الأثير في كتابه "التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية في الموصل" "...أن أيوب بن شادي بن مروان يرجع إلى الأكراد الروادية وهم فخذ من الهذبانة..." (ابن الأثير، 2003، ص 16)، ويؤيده في الرأي ابن خلكان في كتابه "الوفيات"، حيث يقول: "...قال لي رجل فقيه عارف بما يقول، وهو من أهل دوين، إن على باب دوين قرية يُقال لها أجدانقان وجميع أهلها أكراد روادية، وكان شادي قد أخذ ولديه أسد الدين شيركوه ونجم الدين أيوب وخرج بهما إلى بغداد ومن هناك نزلوا تكريت، ومات شادي بها..." (ابن خلكان، د.ت، ص 140)، بينما رفض بعض الأمراء الأيوبيين النسب الكردي وعلى رأسهم صلاح الدين بقوله: "...إنما نحن عرب، نزلنا عند الأكراد وتزوجنا منهم..." (ابن واصل الجزء الأول، د.ت، ص 3-6)، فالرأي الراجح إما أن يكونوا أكرادا أو خليط كردي عربي، وكنوع من إضفاء القدسية على الانجازات السياسية والعسكرية التي حققها أمراء وسلاطين الدولة الأيوبية، ادعوا النسب العربي، شأنهم شأن أمراء وسلاطين الدويلات الإسلامية السابقة والتي أسستها أسر وقبائل غير عربية.

ارتحلت أسرة صلاح الدين من دوين إلى تكريت في بداية القرن 12م، حيث غادر شادي مع ابنه نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه (ابن خلكان، د.ت، ص 140)، ودخل نجم الدين أيوب في خدمة السلطان السلجوقي محمود بن ملكشاه (513-525هـ/1119-1131م)، وكمكافأة له اقطعه هذا الأخير قلعة تكريت ليحكمها (أبو شامة، 1991، ص 263)، لكن الأوضاع السياسية بالعراق اضطرت، لأن عماد الدين زنكي حاكم الموصل، تحالف مع السلطان السلجوقي مسعود (529-547هـ/1134-1152م) وهاجما معا بغداد، غير أنهما انهزما أمام قوات الخليفة العباسي المسترشد بالله (512-529هـ/1118-1135م)، وتقهر عماد الدين إلى قلعة تكريت، فاستقبله حاكمها نجم الدين أيوب وقدم له السفن لعبور نهر دجلة نحو الجهة الغربية إضافة إلى مساعدات أخرى، ونظرا لتك المساعدة اعتبر الخليفة العباسي ما قام به حاكم قلعة تكريت خروجاً على السلطة العباسية لذا ارتحل نجم الدين أيوب مع عائلته إلى عماد الدين الزنكي بالموصل، هذا الأخير رحب به وأحسن إليه بأن اقطعه مجموعة من الأراضي، وضمه إلى قادة جنده واسند إليه حكم بعلبك عام (533هـ/1138م) (ابن الأثير، 2003، ص 16)، لكن بعد وفاة عماد الدين الزنكي سنة (541هـ/1146م) انتقل

الحكم إلى ابنه نور الدين زنكي، ودخل نجم الدين أيوب وأخو أسد شيركوه في خدمته، وارتفع شأنهما عند نور الدين فعين هذا الأخير نجم الدين حاكما على دمشق، وكلف أسد شيركوه بقيادة الجيش الزنكي إلى مصر لضمها إلى ممتلكات الدولة الزنكية، وقد صحبه ابن أخيه صلاح الدين، الذي تولى وزارة الخلافة الفاطمية عام (564هـ/1169م) عقب وفاة عمه شيركوه (أبو شامة، 1991، ص 289-290).

بعد تولي صلاح الدين منصب الوزارة، عمل على تقوية قبضته على مقدرات الخلافة الفاطمية بمصر، باستمالة قلوب سكانها وإخضاع جندها، وتقليص نفوذ الخليفة الفاطمي (أبو شامة، 1991، ص 290-296)، فقد أثارت هذه الإجراءات مخاوف أماليك الأول "عموري" (558-569هـ/1162-1174م) ملك مملكة بيت المقدس الصليبية، نظرا لما تنطوي عليه خطورة توحيد بلاد الشام ومصر على الوجود الصليبي بالساحل الشامي، لذا سارع الملك أماليك الأول إلى طلب المساعدة من الإمبراطور البيزنطي مانويل (538-576هـ/1143-1180م)، والتنسيق معه لغزو مصر (وليم صوري، 1995، ص 91-127)، لكن الحملة الصليبية البيزنطية سنة (564هـ/1169م)، كان مآلها الفشل بفضل الإجراءات العسكرية الدفاعية التي اتخذها صلاح الدين، والتي انتهت بانتصار المسلمين، مما زاد من شعبيته في أوساط المصريين ورأى نفسه انه أولى بالحكم، وأول إجراء اتخذه لتثبيت حكمه هو إلغاء الخلافة الفاطمية بمصر عام (567هـ/1171م) (ابن الأثير، 2003، ص 22، 33)، وتأمين حدود إمارته بمصر خلال أعوام (568-569هـ/1172-1174م)، بداية بضم المغرب الأدنى عام (568هـ/1173م)، إخضاع بلاد النوبة المسيحية عام (568هـ/1173م) وضم اليمن عام (569هـ/1174م) (محمد سهيل طقوش، 2008، ص 45-50)، لم تكن تحركات صلاح الدين بمصر بخافية عن نور الدين زنكي، وكان هذا الأخير يتحين الفرصة ليخضعه لسلطانه أو يعزله، لكن وفاه نور الدين زنكي سنة (569هـ/1174م) حالت دون ذلك (ابن الأثير، 2003، ص 35).

أثارت وفاة نور الدين زنكي مشكلة تقسيم دولته بين ورثته، خصوصا وأنه ترك ولدا صغيرا لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره، فشب نزاع بين الأمراء البيت الزنكي على من يقوم بالوصاية على الأمير الصغير، وانفرط عقد الدولة الزنكية مما هدد الوحدة الإسلامية، وكانت المشكلة السابقة الذكر كفيلا بأن تعيد المسلمين إلى حالة التمزق والانقسام التي كانوا عليها قبل ظهور عماد الدين زنكي (محمد سهيل طقوش، 2008، ص 51-53)، فالواقع أن صلاح الدين تطلع إلى ضم بلاد الشام للحفاظ على الوحدة الإسلامية، نظرا للنزاع الذي نشب بين الأمراء البيت الزنكي حول أحقية الحكم، هيا ذلك النزاع فرصة لصلاح الدين لكي يتدخل في بلاد الشام، خصوصا وأنه أعطى لنفسه شرعية الوصاية على الصالح إسماعيل ابن نور الدين زنكي (أبو شامة، 1991، ص 393-406)، ولم يطل انتظاره حتى جاءت دعوة من أعيان مدينة دمشق لتسلمها، وبالفعل تسلم المدينة وقلعتها عام (569هـ/1174م)، ثم خاض عدة معارك مع الأمراء الزنكيين وانتصر عليهم، وضم مدينتي حماه وحمص عام (570هـ/1175م)، ليكسب بذلك تأييد الخليفة العباسي المستضيء بأمر الله (565-575هـ / 1170م - 1180م)، وهذا الأخير خلع عليه الخليفة لقب سلطان مصر والشام عام (570هـ/1175م)، ليواصل جهوده ويضم مدينتي سنجار وحلب عام (578هـ/1183م) (ابن الأثير، 2003، ص 65-70)، ومدينة ميفارقين عام (581هـ/1185م)، وضمن تبعية أمير الموصل عز الدين مسعود الزنكي عام (582هـ/1186م) (ابن الأثير، 2003، ص 134)، فقد أثمرت الجهود السياسية والعسكرية التي بذلها صلاح الدين في تحقيق الوحدة السياسية بين مصر وبلاد الشام، ليوجه مجهوده العسكري ضد الإمارات الصليبية ببلاد الشام.

- المناوشات العسكرية بين الدولة الأيوبية والإمارات الصليبية (569-583 هـ / 1174-1187 م):

اتسمت العلاقات السياسية بين الدولة الأيوبية والإمارات الصليبية بالعدائية خلال سنوات (569-583 هـ / 1174-1187 م)، لم يكن صلاح الدين خلالها متفرغا لقتال الصليبيين، نظرا لانشغال هذا الأخير في توحيد الجبهة الإسلامية بضم القوى الإسلامية المبعثرة في بلاد الشام تحت سيادته، وإن كان قد اشتبك مع الصليبيين، فإن هذه الاشتباكات كان يغلب عليها الطابع الدفاعي لحماية المدن الإسلامية منهم، ويحول بينهم وبين مساعدة بعض القوى الإسلامية المناوئة (محمد سهيل طقوش، 2008، ص 115).

ضيق الصليبيون فرصة استغلال الوضع المتأزم في البلاد الإسلامية عقب موت نور الدين و تسابق أمرائه على اقتسام تركته الشاسعة، ويعود ذلك إلى الموت المفاجئ للملك الصليبي أمالريك الأول الذي ترك وراءه وضعاً داخلياً متأزماً، فقد خلفه ابنه بدوين الرابع "Baudouin IV" (581-569 هـ / 1174-1185 م)، الذي لم يتجاوز الثانية عشر من عمره وقد كان مريضاً بالجذام "البرص" (وليم صوري، 1995، ص 169-176)، ونظراً لصغر سنه ومرضه، فإنه كان مضطراً للسماح لأمرائه بتسيير أمور مملكته، الأمر الذي دفع أمراء الإقطاعية والقيادات الدينية أن تتنافس بشأن الوصاية عليه، وانتهى التنافس بفوز ريموند الثالث "Raymond III" أمير طرابلس الصليبية (547-583 هـ / 1152-1187 م) (وليم صوري، 2002، ص 23-25)، وبوصفه وصياً على العرش، عمل على الحد من نمو قوة صلاح الدين، وذلك بشن مجموعة من الغارات الخاطفة على أملاك الدولة الأيوبية، ففي سنة (570 هـ / 1175 م) انتهز الملك بدوين الرابع فرصة انشغال صلاح الدين بقتال الأمراء الزنكيين في شمال بلاد الشام، فغزا إقليم دمشق، مما اضطر صلاح الدين إلى عقد هدنة مع الصليبيين لكي لا يضطر إلى القتال على جبهتين في وقت واحد، لكن نقض الصليبيون الهدنة في العام التالي، وفي غمرة الصراع بين صلاح الدين والأمراء الزنكيين، أغاروا على إقليم البقاع وتصد لهم شمس الدين توران أخ صلاح الدين غير أن اللقاء لم يكن حاسماً، مما اضطر الصليبيين إلى الانسحاب (أبو شامة، 1992، ص 57-59).

توقف القتال لمدة سنة نظراً لانشغال الجانبان الإسلامي والصليبي بمشاكلهما، فانشغل صلاح الدين بقتال الزنكيين، أما الصليبيين فعادوا للتنازع حول أحقية الوصاية على الملك، وقد حسمت المشكلة بتسليم الملك بدوين الرابع زمام السلطة سنة (572 هـ / 1177 م)، وقد أعطى هذا الأخير الأمر لريموند الثالث وبوهيموند الثالث "Bohémond III" أمير أنطاكية الصليبية (568-598 هـ / 1163-1201 م)، بالهجوم على مدينة حارم التي تبعد 19 كلم شرق مدينة أنطاكية، وبالفعل ضرب الجيش الصليبي الحصار على المدينة، وكرد فعل من جانب صلاح الدين، قام هذا الأخير بالهجوم على مدينة عسقلان والاستيلاء عليها، لكن تفرق قواته وانشغالها بالسلب، أعطى الفرصة للقوات الصليبية لكي تباغته وهو بمنطقة الرملة، فاضطر لخوض المعركة غير متكافئة انتهت بإبادة أغلب قواته ونجاته وعودته إلى مصر (ابن شداد، 1994، ص 97-98)، ارتفعت معنويات الصليبيين بعد انتصارهم بمعركة الرملة، فاخذوا يكثفون من هجماتهم على مدن بلاد الشام كمدينة حماة وقلعة شيرز سنة (573 هـ / 1178 م)، واكتفى قادة صلاح الدين بالدفاع فقط (ابن واصل الجزء الثاني، د.ت، ص 64).

بحلول عام (574 هـ / 1179 م) تحرك صلاح الدين بقواته من مصر إلى مدينة دمشق، واشتبك مع القوات الصليبية بمنطقة تل قاضي والتي انتهت بانتصاره واسر عدد من الأمراء صليبيين (ابن واصل الجزء الثاني، د.ت، ص 75-79)، ونتيجة للخسائر الجسيمة التي لحقت بالجيش الصليبي بتل قاضي، لم يجد بدوين الرابع حلاً سوى طلب هدنة من صلاح الدين، وبالفعل عقدت الهدنة عام (575 هـ / 1180 م) وحددت مدتها بسنتين، لأن الطرفين كان بحاجة شديدة إليها،

خصوصاً أن بلاد الشام تعرضت طوال سنة (575هـ/1180م) إلى جفاف شديد ذبلت على إثره المحاصيل الزراعية ولم ينضج منها إلا القليل، فقلّت مؤن الجيشين الصليبي والأيوبي، وأصبح يتعذر على أي منهما مهاجمة الآخر (محمد سهيل طقوش، 2008، ص 129)، لكن الهدنة لم تستمر طويلاً، لأن رينو دي شاتيون "Renaud de Chatillon" أمير حصن الكرك نقض الهدنة، فقد كان من شروط الهدنة، أن يكون للتجار حرية التنقل بين الجانبين، إلا أن رينو ساءه أن يرى القوافل التجارية الإسلامية، تسير مطمئنة قرب حصنه، ففي سنة (576هـ/1181م) قاد قواته إلى الحجاز ووصل إلى واحة تيماء الواقعة بالقرب من المدينة المنورة، واستولى على قافلة تجارية مارة بها، وفشلت مساعي صلاح الدين في استعادة القافلة، وكرد فعل قام صلاح الدين عام (577هـ/1182م) بمهاجمة بيروت براً وبحراً، لكن هجومه فشل وانسحب إلى مدينة دمشق (ابن الأثير، 2003، ص 105، 112).

استمرت اعتداءات الأمير الصليبي رينو، حيث خطط لتنفيذ مشروع طالما جال بخاطره، وهو أن ينزل أسطولاً في البحر الأحمر يغير به على السفن التجارية الإسلامية وسفن الحجاج التي تقصد الحجاز، ويهاجم المدينة المنورة ومكة المكرمة المدينتين المقدستين عند المسلمين، فقام سنة (578هـ/1183م) بحملة بحرية هدفها الهجوم على مكة والمدينة، فأخذت سفنه تغير على الموانئ المصرية الواقعة على البحر الأحمر، وتقوم بالاستيلاء على السفن التجارية القادمة من اليمن والهند، ثم وسعوا غارتهم لتشمل موانئ الحجاز ووصلت غاراتهم حتى ميناء راغب إحدى موانئ مكة، ولمواجهة هذا التهديد كلف صلاح الدين أخاه العادل في مصر بإعداد أسطول بحري في البحر الأحمر تحت قيادة حسام الدين لؤلؤ قائد أسطول مصر، فقام هذا الأخير بتعقب السفن الصليبية وتدميرها (ابن الأثير، 2003، ص 117-118)، وفي التوقيت ذاته قاد صلاح الدين جيشه لمحاصرة حصن الكرك وقد استمر حصاره قرابة عام كامل، لكن دون جدوى نظراً لمناعته (ابن شداد، 1994، ص 113-115)، وارتى الطرفان فيما بعد إلى عقد هدنة عام (580هـ/1185م) مدتها أربع سنوات (محمد سهيل طقوش، 2008، ص 140).

عقب توقيع الهدنة توفي الملك الصليبي بدوين الرابع، ليخلفه في الحكم ابنه بدوين الخامس "Baudouin V" (581-582هـ/1185-1186م)، الذي ما لبث أن توفي بعد شهر من توليته، فبرزت من جديد مشاكل الصليبيين، إذ كانت وفاته إيذاناً باندلاع صراع حاد بين الأمراء للفوز بعرش المملكة. وقد انتهى الصراع بتسليم سبيلا - أخت بدوين الرابع- تاج الملك إلى زوجها غي دي لوزينيان "Guy de Lusignan" (588-582هـ/1186-1192م)، هذا الأخير أعلن أنه ملتزم بالمحافظة على الهدنة التي عقدت مع صلاح الدين، لكن رينو سلك مسلكاً آخر بعيداً عن سياسة الملك (محمد سعيد عمران، 2000، ص 128)، فقام بنقض الهدنة سنة (581هـ/1186م) حين أوقف قافلة تجارية كبيرة مارة بالقرب من حصنه فاستولى عليها وأسر تجارها (ابن الأثير، 2003، ص 142)، لم تلبث أنباء الاعتداء أن وصلت إلى مسامع صلاح الدين، فأرسل إلى رينو يتهدده إن لم يطلق سراح الأسرى ويعيد الأموال، غير أن رينو رفض استقبال سفراءه، مما اضطر صلاح الدين إلى رفع الشكوى إلى الملك غي دي لوزينيان، وطالبه بالضغط على رينو، لكن الملك أخفق، مما جعل الحرب أمراً لا مفر منه (محمد سهيل طقوش، 2008، ص 142).

كانت الأحداث تجري بسرعة في مصلحة صلاح الدين، فأعلن النفير العام في مصر وبلاد الشام والعراق، وخرج من دمشق عام (583هـ/1187م) على رأس جيش كبير نحو حصن الكرك لحصاره، وكان الهدف من الحصار هو التموهية عن الهدف الحقيقي وهو مهاجمة مملكة بيت المقدس، والتغطية على الحشود الإسلامية التي كانت تتجمع بمنطقة رأس

الماء بالقرب من دمشق، وكانت أولى الصدامات العسكرية مع الصليبيين بمنطقة عين الجوزة بتاريخ أبريل 1187م، انتهى الصدام بدحر فرسان الداوية "Templiers" والإسبتارية "Hospitaliers" (ابن الأثير، 2003، ص 144).

2- مجريات معركة حطين عام (583 هـ / 1187م):

- الاستعدادات العسكرية للمسلمين والصليبيين:

اختلفت روايات وتقديرات المؤرخين والباحثين حول تعداد الجيشين الإسلامي والصليبي، فالنسبة لتعداد الجيش الإسلامي، يذكر المؤرخ أبو شامة أن تعدادهم بلغ 12000 جندي بين فارس ومشاة (أبو شامة، 1992، ص 134)، فحين اقتصر المؤرخ الأصفهاني على الوصف فقط (الأصفهاني، ص 43-44)، ونجد الاختلاف حتى بين المؤرخين المعاصرين، فنذكر على سبيل المثال لا الحصر: المؤرخ محمود إبراهيم الذي قدر العدد بحوالي 18000 جندي (محمود إبراهيم، 1987، ص 24)، والمؤرخ سعيد احمد برجاي الذي قدر العدد بحوالي 25000 جندي (سعيد احمد برجاي، 1984، ص 385)، لذا يبقى تعداد الجيش الإسلامي يخرج عن الإحصاء على حد قول ابن الأثير "... فقال القمص (ريموند الثالث)... فوالله لقد رأيت عساكر الإسلام قديما وحديثا ما رأيت مثل العسكر الذي مع صلاح الدين كثرة وقوة..." (ابن الأثير، 2003، ص 146)، خصوصا وان صلاح الدين جمع تحت قيادته مصر، بلاد الشام، المغرب الأدنى، اليمن والجزيرة العربية ومدن شمال العراق وليس غريبا أن يجتمع تحت قيادته الحشود التي تخرج عن الإحصاء، بعد أن أعلن عن هدفه وهو تحرير الأراضي الإسلامية وطرد المحتلين (قاسم محمد صالح، 1987، ص 51-52).

بالنسبة لتعداد الجيش الصليبي، ذكر المؤرخ أبو شامة أن تعدادهم بلغ 50000 جندي (أبو شامة، 1992، ص 134)، ونفس العدد نجده عند المؤرخ ابن واصل (ابن واصل الجزء الثاني، د.ت، ص 189) والمؤرخ الأصفهاني (الأصفهاني، ص 48)، فحين قدم المؤرخون المعاصرون تقديرات متضاربة، نذكر على سبيل المثال لا الحصر: المؤرخ ستيفن رانسيما قدر العدد بحوالي 12000 جندي موزعين على النحو التالي: 1200 تشكل من الفرسان الصليبيين وفرسان تركوبلي "Turcoples" (أتراك مرتزقة) ومشاة 10000 (ستيفن رانسيما، 1994، ص 513)، فحين المؤرخ انتوني برديج قدر عددهم بحوالي 18000 جندي موزعين على النحو التالي: 12000 فارس ثقيل التسليح، 4000 فارس خفيف التسليح و2000 مشاة (انتوني برديج، د.ت، ص 217)، والمؤرخ ألبير شاندور قدر عددهم بحوالي 20000 جندي منقسمين إلى 2000 فارس و18000 مشاة (ألبير شاندور، 1988، ص 202)، لكنه في موضع آخر يناقض نفسه حيث يذكر أن عدد الجنود الصليبيين الذي قتلوا بعد معركة حطين حوالي 30000 جندي (ألبير شاندور، 1988، ص 209)، أما المؤرخ محمود إبراهيم فيذكر أن العدد بلغ حوالي 38200 جندي موزعين على النحو التالي: 6200 فارس و32000 مشاة (محمود إبراهيم، 1987، ص 26)، ما يمكن استنتاجه أن الجيش الصليبي الذي احتشد في معركة حطين كان كبيرا جدا على حد قول ابن الأثير "... وكثر القتل والأسر فيهم، فكان من يرى القتلى لا يظن أنهم أسروا واحدا، ومن يرى الأسرى لا يظن أنهم قتلوا أحدا..." (ابن الأثير، 2003، ص 148)، وتدمير ذلك الجيش في معركة حطين جعل مدن وقلاع الصليبية بفلسطين والساحل الشامي تهاوى في يد الجيوش الإسلامية بعد انتهاء المعركة، مما دفع بصليبي الشام للاستنجاد بالقوى الأوروبية، التي احتشدت بالفعل في حملة عسكرية عرفت لدى المؤرخين بالحملة الصليبية الثالثة (585-588 هـ / 1189-1192م) (محمد سهيل طقوش، 2010، ص 489).

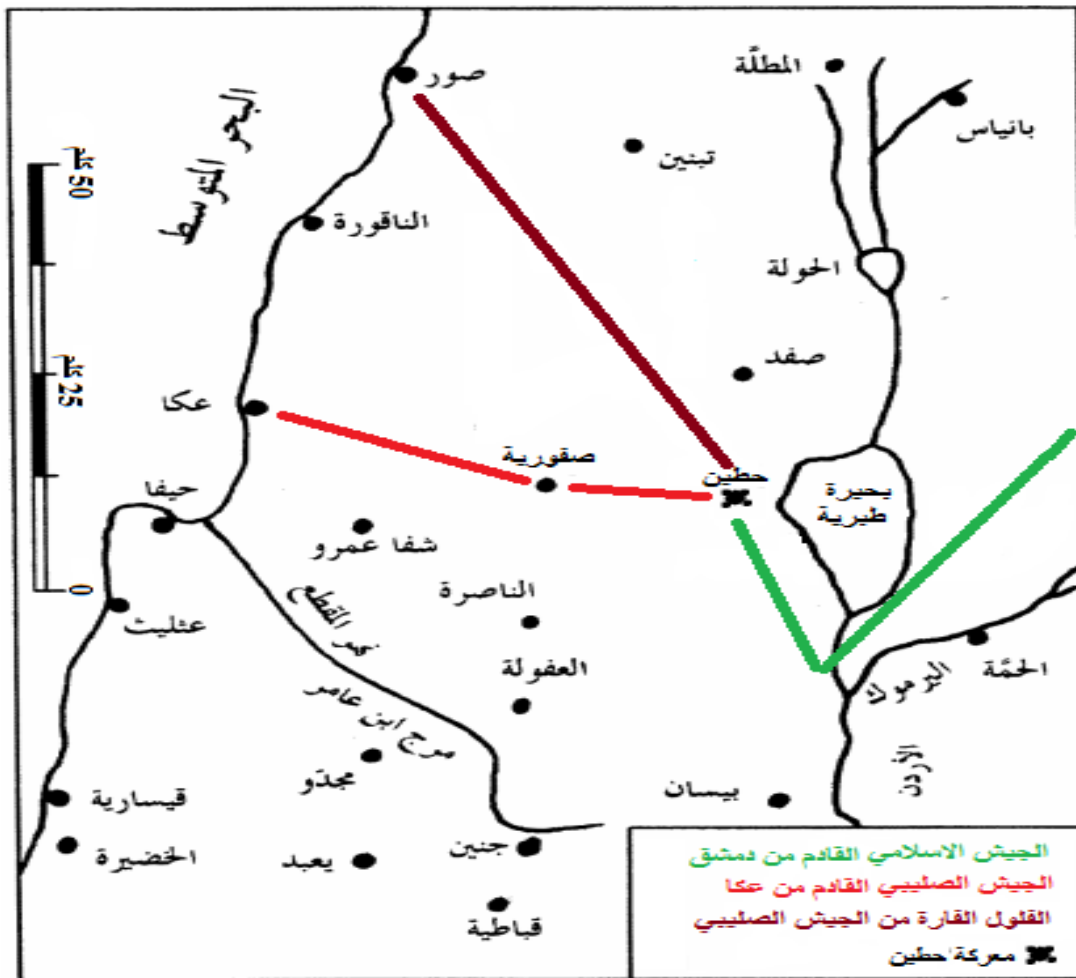
- سلاح التعطيش وهزيمة الجيش الصليبي بحطين:

اختر الصليبيون منطقة صفورية قرب عكا لحشد قواتهم، وعندما علم صلاح الدين بذلك توجه إلى طبرية بتاريخ 26 جوان 1187م، وعسكر بجيشه في منطقة الاقحوانة جنوب بحيرة طبرية لمدة خمسة أيام، ارتحل بعدها إلى قرية الصنبرة الواقعة عند التلال المحيطة ببحيرة طبرية (ابن شداد، 1994، ص 126-127)، والواقع أن اختياره لهذا المكان كان محفوفاً بالمخاطر، لأنه حشر نفسه وجيشه بين البحيرة والعدو وأهمل طريق الانسحاب في حالة الهزيمة، كما كان الموقع ذو فائدة إستراتيجية، إذ يحول دون وصول الصليبيين إلى ماء نهر الأردن أو أبار مياه الينابيع التي تصب بالبحيرة، واقتضت خطته أن يستفز الصليبيين ويدفعهم إلى ترك موقعهم عند صفورية، حتى يصلوا متعبين (محمد سهيل طقوش، 2010، ص 471)، ويكون مدخرا جهده، ولتنفيذ هذه الخطة أرسل قوة عسكرية هاجمت مدينة طبرية ودخلتها بتاريخ 02 جويلية 1187م، لكن استعصت عليها القلعة والتي احتمت بداخلها اسكيفا زوجة ريموند الثالث (الأصفهاني، 2004، ص 48-49)، وقد أحدث سقوط مدينة طبرية ارتباكاً في قرارات القادة الصليبيين، ودفعت الملك غي دي لوزينيان إلى عقد مجلس حرب للتشاور ووضع خطة لتدارك الأمر، فتقدم رينو دي شاتيون بخطة هجومية تقضي بهجوم عام ضد قوات المسلمين والاشتباك معهم في معركة حاسمة، فحين اقترح ريموند الثالث خطة دفاعية تقضي بأن لا تتحرك القوات الصليبية من صفورية الغنية بالمياه، والمكوّث حتى تتفرق قوات صلاح الدين التي لن تستطيع البقاء طويلاً تحت أجواء حرارة الصيف اللافحة، لكن كلا من رينو وجيرارد دي ريدفورت "Gérard de Ridefort" قائد فرسان الداوية رفضا خطة هذا الأخير، واتهماه بالجبن، وأصرّا على تنفيذ الخطة الهجومية (ابن الأثير، 2003، ص 145-146)، فوافقهما الملك وأصدر الأمر بتحريك الجيش الصليبي نحو مدينة طبرية بتاريخ 03 جويلية 1187م، وبمغادرة الصليبيين موقعهم بصفورية، تحقق نجاح خطة صلاح الدين الذي علق بقوله: "... حصل المطلوب، وكمل المخطوب، وجاءنا ما نريد..." (الأصفهاني، ص 49) "ينظر الخريطة".

واجهت الجيش الصليبي -أثناء تقدمه نحو مدينة طبرية- مشكلات عدة أثرت سلباً على قدراته القتالية فيما بعد، نذكر منها: انحطاط روح المعنوية لجنوده، لأنهم ساروا مكرهين بين مؤيد للزحف ومعارض له، يضاف إلى ذلك افتقارهم للماء واشتداد حرارة الجو اللافحة، وصعوبة الطريق البالغ طوله حوالي 26 كلم وتعرضهم المستمر لهجمات المسلمين الخاطفة، إذ لم تنقطع غارات المسلمين عليهم منذ مغادرتهم صفورية، لأنهم وضعوا نصب أعينهم الوصول إلى منابع المياه على طول الطريق، لكن قوات المسلمين حالت بينهم وبين مياه الينابيع والأبار وبحيرة طبرية، واجبر الصليبيون تحت وطأة الهجمات والتعب والعطش على المبيت فوق هضبة بسهل حطين (محمد سهيل طقوش، 2010، ص 472-473)، وعلى أثر ذلك تقدمت جيوش صلاح الدين من قرية الصنبرة، ونزلت بقرية لوبيا على بعد كيلو مترين جنوبي شرقي المعسكر الصليبي (ابن الأثير، 2003، ص 145).

قضى الصليبيون ليلتهم يئنون من العطش والإنهاك، وهم يسمعون أصوات تهليل وتكبير المسلمين بسهل حطين، وقد حاولوا بعضهم التسلل ليلاً للوصول إلى الماء، لكن المسلمين وقفوا لهم بالمرصاد، يضاف إلى ذلك قيام المسلمين بإشعال النار في الأعشاب والأشواك المحيطة بالهضبة ليحمل الريح الدخان إلى معسكر الصليبيين ويزيد من معاناتهم (ابن الأثير، 2003، ص 146-147)، وبحلول صباح 04 جويلية 1187م اكتشف الصليبيون أنهم مطوقون من جميع الجهات بقوات المسلمين وبعيدون عن المياه، فقاد ريموند الثالث فرسانه للوصول إلى قرية حطين حيث ينابيع وأبار المياه، لكن وجد نفسه مطوقاً من جانب المسلمين وانفصل عن الجيش الرئيسي، حيث هذا الأخير كان غاليته من المشاة ويقودهم الملك الذي وجد نفسه في مواجهة الجيش الرئيسي للمسلمين، ونظراً للإنهاك الذي أصاب المشاة الصليبيين فروا إلى تلة بسهل

حطين، مما أدى إلى تفكك أوصل الجيش الصليبي، وفي ظل الفوضى التي ضربت هذا الأخير، حاول الملك أن ينصب خيمة تكون مركزا لإعادة التجمع، لكن صلاح الدين شن هجوما مضادا أدت إلى أسر الملك ورينو دي شاتيون، وبعض فرسان الداوية والإسبتارية، وتعرضت غالبية الجيش الصليبي إما للقتل أو الأسر (ابن الأثير، 2003، ص 147-148)، أما ريموند الثالث فقد شق طريقه عبر ثغرة في الجيش الإسلامي وفر مع من بقي من فرسانه إلى مدينة طرابلس (ابن شداد، 1994، ص 128-129)، بعد انتهاء المعركة سيق الملك والأمراء إلى خيمة صلاح الدين، حيث بذل لهم الأمان، فحين تقرر إعدام الأمير رينو وفرسان الداوية والإسبتارية، أما بقية أفراد الجيش فتم بيعهم في أسواق الرقيق بمدن بلاد الشام (ابن شداد، 1994، ص 130-131).



خريطة رقم 01: توضيح موقع حطين. المصدر شوقي أبو خليل، 2005، ص 82 بتصرف.

3-خاتمة:

في الأخير نستخلص النتائج التالية، والتي نوجزها في ما يلي:

- أثمرت جهود صلاح الدين في الحفاظ على الوحدة الإسلامية التي بدأها قبله عماد الدين زنكي وابنه نور الدين، وقيامه بتوحيد مختلف القوى الإسلامية في جيش كبيرة، وتوجيه تلك القوى للحرب ضد جيوش الإمارات الصليبية ببلاد الشام.

- أدت الخلافات السياسية بين الأمراء الصليبيين عشية معركة حطين، إلى شق صفوفهم وهزيمتهم معنويا قبل أن يهزموا ميدانيا.

- استعمال صلاح الدين خطة عسكرية محكمة، واختياره لأرض المعركة مسبقا، مع تحديد توقيت وقوعها في شهر جويلية، وهو أشد أشهر الصيف حرارة، بالإضافة إلى استحواده على أبار ومياه بحيرة طبرية؛ فكان الحر والعطش من الأسلحة التي ساهمت في انتصاره الكاسح على الصليبيين في معركة حطين عام 1187م.

- تدمير الجيش الصليبي في معركة حطين، جعل المدن والقلاع الصليبية بفلسطين والساحل الشامي تنهوى بسهولة في يد الجيوش الإسلامية.

- مثلت معركة حطين كارثة عسكرية حلت بالوجود الصليبي ببلاد الشام، ومهدت الطريق لتحرير مدينة القدس عام 1187م، وانقلاب ميزان القوى لصالح المسلمين، يقابله ضعف الصليبيين وبداية نهاية حكمهم ببلاد الشام، والذي توج بتحرير مدينة عكا عام 1291م على يد الأشرف قلاوون سلطان المماليك.

4-توثيق المراجع:

1. أبو شامة شهاب الدين أبي محمد عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي، 1991، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، الجزء الأول، تحقيق: أحمد البيسومي، دمشق، منشورات دار الثقافة.
2. أبو شامة شهاب الدين أبي محمد عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي، 1992، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، الجزء الثاني، تحقيق: أحمد البيسومي، دمشق، منشورات دار الثقافة.
3. أبو خليل شوقي، 2005، معركة حطين بقيادة صلاح الدين، دمشق، دار الفكر.
4. ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني، 2003، الكامل في التاريخ، المجلد العاشر، الطبعة الرابعة، تحقيق: محمد يوسف الدقاق، بيروت، دار الكتب العلمية.
5. ابن واصل جمال الدين محمد بن سالم، د.ت، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، الجزء الأول، تحقيق: جمال الدين الشيال، د.م.ن، د.د.ن.
6. ابن واصل جمال الدين محمد بن سالم، د.ت، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، الجزء الثاني، تحقيق: جمال الدين الشيال، د.م.ن، د.د.ن.
7. ابن شداد بهاء الدين يوسف، 1994، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق: جمال الدين الشيال، القاهرة، مكتبة الخانجي.

8. ابن خلكان شمس الدين أيّ العباس أحمد بن أبي بكر، د.ت، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، الجزء السابع، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار صادر. إبراهيم محمود، 1987، حطين بين أخبار مؤرخيها وشعر معاصريها، عمان، دار البشير.
9. الأصفهاني عماد الدين الكاتب، 2004، الفتح القسي في الفتح القدسي، د.م.ن، دار المنار .
10. برجايوي سعيد احمد، 1984، الحروب الصليبية في المشرق، بيروت، دار الأفاق الجديدة .
11. بردج انتوني، 1985، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: احمد غسان سبانو، نبيل الجزوري، دمشق، دار قتيبة.
12. صالح قاسم محمد، 1987، العسكرية الإسلامية في العصور الوسطى، حطين وعين جالوت دراسة تحليلية عسكرية، عمان، د. د.ن.
13. طقوش محمد سهيل، 2008، تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة 1174-1263م، الطبعة الثانية ، بيروت، دار النفائس.
14. طقوش محمد سهيل، 2011، تاريخ الحروب الصليبية (حروب الفرنجة في المشرق) 1096-1291م، بيروت، دار النفائس.
15. عمران محمود سعيد، 2000، تاريخ الحروب الصليبية 1096-1291م، القاهرة، دار المعرفة الجامعية .
16. الصوري وليم، 1995، الحروب الصليبية، الجزء الرابع، ترجمة: حسن حبشي، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب.
17. الصوري وليم، 2002، ذيل وليم الصوري، ترجمة: حسن حبشي، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب.
18. رانسيما ستيفن، 1994، تاريخ الحملات الصليبية، الجزء الثاني، الطبعة الثانية، ترجمة : نور الدين خليل، د.م.ن، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
19. الشامي احمد، 1991، صلاح الدين الأيوبي والصليبيون، تاريخ الدولة الأيوبية، القاهرة، مكتبة النهضة العربية.
20. شاندر ألبير، 1988، صلاح الدين الأيوبي البطل الأتقي في الإسلام، ترجمة: سعيد أبو الحسن، مراجعة وتحقيق: نديم مرعشلي، دمشق، دار طلاس.